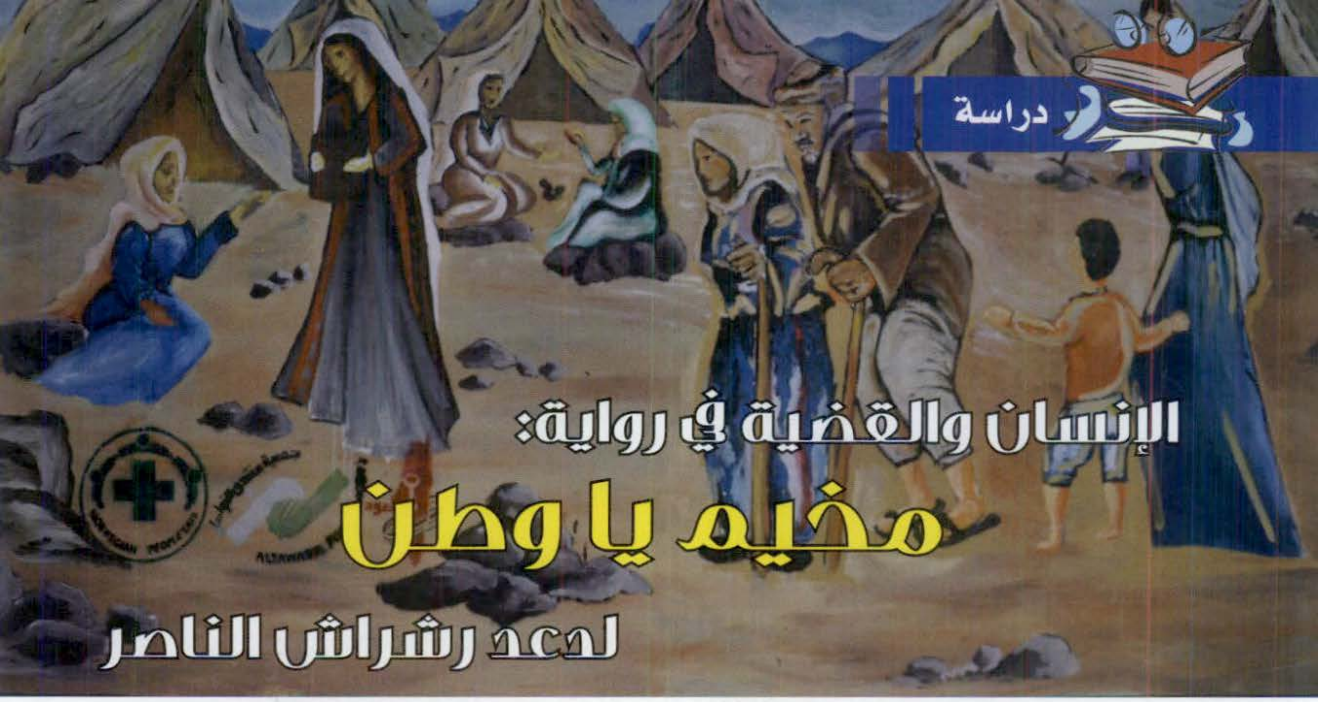

الإنسان والقضية في رواية:
مخيم يا وطن
لسعد رشراش الناصر

د. سعد أبو الرضا- مصر

تحاول الكاتبة في هذا العمل الروائي معالجة قضية علاقة الإنسان الفلسطيني بوطنه، مجلية عدم تفريطه فيه، وقوة أمله في استرداده من مغتصبيه، وعودته الحتمية المنطقية إليه، متخذة من السرد وسيلتها الفنية لتحقيق هذه الأهداف الإنسانية، من ثم يصبح الشكل الفني ممتزجاً بالقضية وأبعادها، في بنية متماسكة، كاشفة عن ذلك، في تنوع تجسده وحدة هذا العمل وبنيته الفنية.

ولعل «العنوان» وما يبثه أول عتبة في هذا التنوع: وهي تنطلق من «المخيم» وما يوحيه من قسوة الحياة؛ ضيق المكان، وتدني وسائل العيش للصغار وللكبار، برغم ثراء مشاعرهم في التآلف والتواد والترابط، وخلوصهم للطاعة والعبادة لله سبحانه وتعالى، بينما «الوطن» هو مناط الاستقرار، وسعة الحياة وطمأنينتها، ويربط هذين المتقابلين «ياء النداء» المتسعة الدلالة بالأسى والحزن والإحساس بالفقد والضياع والتحسر لما نزل بهم.

الحدث والشخصيات:

ويتمثل جسم الحدث في انتقال مريم العمودي التي درست الصيدلة في أمريكا؛ من أمريكا إلى مخيم في فلسطين يقيم فيه جدها وجدتها، مع زوجة عمها المتوفى وابنها إبراهيم وأخيه عمر، وقد كان انتقالهم من أمريكا بعد فقدهم ما يملكون، وتكليف رب الأسرة لشخصية صديقه «الزهراوي» للاتفاق مع محامٍ كي يسعى في قضية ترد لهم ما افتقدوه، وسيظل هاجس نجاحه فيما يسعى فيه فاعلاً في نمو الحدث، حتى النهاية المفتوحة لهذا العمل السردي.

وربُّ هذه الأسرة يمكن أن يمثل أحد النماذج لأولئك الذين يهجرون وطنهم فلسطين بحثاً عن مكان آمن وحياة مستقرة، عندما لا تتيسر لهم الحياة في وطنهم بفعل مؤامرات اليهود، وحربهم في السر والعلن للناس في فلسطين، بطرد أصحاب الأرض منها، وبناء المستوطنات عليها، وتهجير اليهود

من كل دول العالم إلى فلسطين، لتحقيق الوعد المزعوم من قبلهم في أن تكون فلسطين هي أرض الميعاد لهم.

أما وقد فقدت هذه الأسرة المهاجرة مصدر عيشها خارج وطنها في أمريكا فلا ملجأ لهم إلا أن يعودوا لأسرتهم في المخيم ليواصلوا الحياة معهم، وهكذا تصبح المقارنة بين الحياة في أمريكا باتساعها وتنوعها، وانطلاقها وحيويتها، والحياة في المخيم بضيقه ورتابته وجموده في نظر مريم من أهم العوامل الفاعلة في تشكيل شخصيتها، وهي الشخصية الرئيسة في الرواية، التي استثارها هذا البون الشاسع بين المكانين أمريكا والمخيم، والحياتين وطبيعة هؤلاء البشر الذين لم يتمسكوا في نظرها بوطنهم، وقد فرطوا فيه، بل كانت تعامل كل البشر صغاراً وكباراً باحتقار، وعدم تقدير، لما ارتكبوه في نظرها في حق أرضهم ووطنهم وأنفسهم، بل لم تكن تتعاطف مع أي إنسان، فهي مثلاً لم تقبل أن تقوم بتقسيط ثمن الدواء، للفقير الذي جاءها حاملاً وصفة طبية، وهو لا يملك ثمنها، لأنه في نظرها غير جدير بالمساعدة، لاختلافه عمن عرفتهم في أمريكا بشراً وزماناً ومكاناً.

وقد تجلى ما سبق بصورة أوضح في علاقة مريم العمودي بشخصية ياسر، الذي فاجأها يوماً وهو يدفع باب الصيدلية التي تعمل فيها بالمخيم والدم ينزف من جرحه، مما استثار فاعليتها ورغبتها في الخير، فأقبلت عليه،

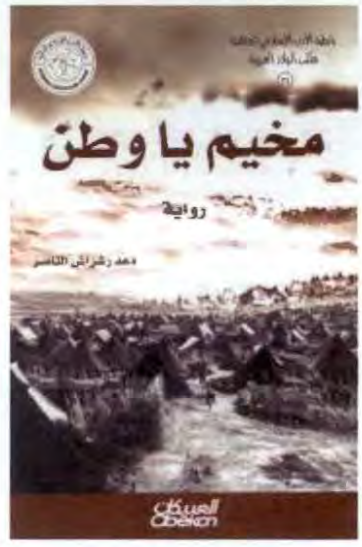

ولكن بشيء من التأفف، فضمدت الجرح وحقنته بعد أن أنامته على ما فرشته له فوق الأرض، وعندما جاء ليشكرها يوماً ما بعد ذلك، دار بينهما نقاش حول موقفه من الوطن، ومدى تمسكه به، فهي ترى أنه كغيره قد فرط فيه، ولم يدافع عنه، بينما هو يرى أن حب الوطن متجذر فيه، وفي كل فلسطيني، بل لا يستطيع أن يعيش من دون ذلك، لكنها لا تُقدر ذلك ولا تحس به لأنها كانت تعيش في أمريكا بعيدة عن فلسطين، بل إنه قد وظف إجادته للرسم في التعبير عن ذلك وهي وسيلة للكشف عن الهوية والولاء للوطن، ومن أجل ذلك فقد انتقم منه العدو بقطع ذراعه حتى لا يستطيع الرسم.

التحول الكبير في الشخصية والرواية:

وقد بدأت مريم تحس بشيء مما وراء موقف ياسر، من ارتباط وثيق بالوطن مهما أبعد عنه، وحنينه الدائم إليه، وهو ما يمكن أن يعد من أهم العوامل الفاعلة في تغيير موقفها، وتحولها من الكراهية إلى الحب، ومن النفور إلى الإيلاف، ومن البغض إلى التعاطف مع المخيم، ومن فيه، وما فيه[1]، خاصة عندما يرتبط ذلك بعلاقتها بجدتها التي لا تكف عن تأكيد العودة إلى الوطن، والرجوع إليه، مهما طال الابتعاد عنه، وقد وضح ذلك في حديثها مع مريم، وكذلك وهي تغني للعودة وأحفادها يرددون ذلك النشيد وراءها، وأيضا في مناجاتها، ودعائها لله في صلواتها، وارتباط كل ما سبق بقولها: إن مريم «الخير والبركة» بل إنها تكرر ذلك كثيراً[2]، كما قامت بصنع ثوب فلسطيني لمريم

التي ستحرص فيما بعد على دوام ارتدائه، ولاسيما عندما تشكل من أطفال المخيم فريقاً يغني للعودة، ويعبر عن طريق الغناء بأناشيد الحب للوطن والتمسك بالعودة إليه، مما أقلق والديها، واستثار خوفهم عليها، فالعدو لا يمكن أن يتساهل مع مثل هذه المواقف الثورية برغم ما تبدو فيه من عفوية.

وهكذا يتضح ملمح مهم في هذه الرواية يربطها بالتقنيات الحديثة في الرواية وهي «تعدد الأصوات»، الذي يكشف في الوقت نفسه عن طبيعة علاقة الإنسان الفلسطيني بوطنه رجالاً ونساء، ما بين مهاجر ومقيم، وثائر وهادئ، ومفكر في الخلاص ومنتظر له، وتصبح العلاقة اللغوية بين المخيم والوطن وتعدد دلالاتها هي الرباط الذي يضم تلك الشخصيات جميعها في مواجهة العالم والدنيا كلها.

كما تتسع «الرؤية السردية» لتجلي نوعيات الفلسطينيين وتباين مواقفهم من القضية الفلسطينية، برغم أن الولاء لها يوحد بينهم جميعاً، وقد تجلى ذلك خلال تدفق تيار وعي الشخصيات الفلسطينية كلها في مناجاتها، وخاصة مريم[٣].

ويبدو أن هذا العمل هو الأول لهذه الكاتبة، فهي تحاول أن تتألق في صياغاتها أحياناً، مما قد يمس بعض هذه الصياغات بالغموض، برغم أن انتقاء اللغة والتأنق ملمح واضح، كما كان للشعر دور مهم في بناء هذه الرواية سواء في أناشيد الجدة، وأغنياتها، أو أناشيد مريم مع الأطفال[٤]، مما كشف عن روح رومانسية فيها.

وقد نشرت الرواية ضمن إصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مكتب البلاد العربية برقم (٣٤)، عن مكتبة العبيكان بالرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م. وهي الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية التي أجرتها الرابطة للأدبيات■

الهوامش:

(١) انظر: مخيم يا وطن ص ٧٧، ٧٩

(٢) انظر الرواية ص٥٤-٥٥ وغيرهما.

(٣) انظر الرواية ص٧١-٧٣ وغيرها.

(٤) انظر الرواية على سبيل المثال صفحات: ٧٤، ٨٠، ٨١، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١١٥.